SIATS Journals

The journal of media and social studies for specialized researches (JMSSR)

Journal home page: http://www.siats.co.uk

مجلة الإعلام والعلوم الاجتماعية للأبحاث التخصصية

العدد 2، المجلد 3، نيسان 2018م.

الهُّوية والخصوصيات الثّقافية في المجتمعات الإفتراضية

رحيمة الطيب عيساني

كلية الاتصال والإعلام، جامعة العين للعلوم والتكنولوجيا

الإمارات العربية المتحدة

rahima.aissani@aau.ac.ae

1439هـ، 2018م

ARTICLE INFO
Article history:
Received 5/1/2018
Received in revised form 8/1/2018
Accepted 02/3/2018
Available online 15/4/2018
Keywords:
Insert keywords for your paper

Abstract

The paper will focus on studying the status of identity and individual and collective cultural specificities within virtual communities (virtual communities: communities formed by individual and collective engagement in the Internet and its new applications, and use it as the face of social contemporary communities), in its general global perspective, as well as its local and national perspectives (our identity, and our Arab and Islamic cultural specificities). The study concluded that the unprecedented process of engagement in the technology communities and their tools brought up collective and social discussions about identities, their components, their sustainability and their persistence in resisting the processes of profiling or embalming. They oscillate between those who foreshadow major and radical transformations, Which greatly contributed to the deepening of the gap between the elements of identity, by the deconstructive nature of the contemporary modernist vision directed at the cosmic context, and by those who reduce the impact of technology and societies The virtual identities, and it believes that there is a great exaggeration considering the Internet a major factor in making contemporary identity.

Keywords: The Internet, virtual communities, identity, cultural specificities, new media tools**.**

ملخص

ركز البحث على دراسة وضع ومكانة الهويات و الخصوصيات الثّقافية الفردية والجماعية داخل المجتمعات الافتراضية التي يقصد بها تلك المجتمعات التي تشكلت جراء الانخراط الفردي والجماعي في الشّبكة العنكبوتية (الأنترنت) وتطبيقاتها الجديدة، واستخدامها كوجه اجتماعي لمجتمعاتنا المعاصرة، في منظورها العالمي العام، وكذا منظورها المحلي والقومي(هويتنا وخصوصياتنا الثّقافية العربية والإسلامية)، وتوصل البحث نتيجة هامة، مفادها، أن عملية الإنخراط غير المسبوق في مجتمعات التّقانة وأدواتها طرح النّقاشات الجماعية والاجتماعية حول الهويات وعناصرها وديمومتها واستمرارها في مقاومة عمليات التّنميط أو التّحنيط، وهي تتأرجح بين من ينذر بتحولات كبرى وجذرية عليها نظير عملية التّحالف بين العلم والتّقنية والثّقافة الذي ساهم بشكل كبير في تعميق الهوة بين عناصر الهوية، بفعل الطبيعة التّفكيكية التي تأسست عليها الرؤية الحداثية المعاصرة الموجهة لسياق الكونية، وبين من يقلل من حدة التأثيرات التّكنولوجية والمجتمعات الإفتراضية في الهويات، ويرى أن هناك مبالغة كبيرة اعتبار الأنترنت أحد العوامل الرئيسية في صنع الهوية المعاصرة.

كلمات مفتاحية: الأنترنت، المجتمعات الإفتراضية، الهوية، الخصوصيات الثّقافية، أدوات ووسائط الإعلام والاتصال الجديدة.

مقدمة

ما من شك في أننا أصبحنا نعيش عصر الثّورة التّكنولوجية بكل تجلياتها ومعانيها، ونعتمد أكثر على وسائط الإعلام الجديد ووسائله في الحصول على المعلومة والخبر وحتى القرار الشّخصي والجماعي لما يتعلق بحياتنا اليومية الخاصة منها والعامة، وأصبح وجودنا واستمرارنا الثّقافي والاجتماعي مرتبط بهذه الوسائط ومحتوياتها بشكل يوحي بالاندماج والتّماهي مع الوسيلة والوسيط، وقد أكّدت نتائج كثير من البحوث والدّراسات والتّقارير حول الإعلام الجديد ومجمل تطبيقاته أن الانترنت–وهي أحد أهم أدوات ووسائط الإعلام الجديد– أصبحت الوسيلة الاتصالية الأكثر حضورا والأوسع انتشارا، والأكثر اعتمادا في شتّى المجالات الاتصالية؛ انطلاقا من تحقيق الحاجة إلى معرفة آخر الأخبار والوقائع والأحداث، والاطّلاع على المعلومات والمعارف والأفكار، وانتهاء بإشباع حاجات الاتصال والتّواصل الاجتماعي والثقافي بين الأفراد والجماعات والمجتمعات.

ولم يعد استخدامها أمرا اختياريا في المجمل، بل أصبح واقعا فرضته التّطورات التي شهدها ويشهدها العالم في مجال التّكنولوجيات والوسائط الاتصالية، البرمجيات، والتحولات السياسية والثقافية في كل المجتمعات والثقافات، وإن الخبرة والتسهيلات الجديدة التي وفرتها الإنترنت في مجال التنظيم والاتصال والإعلام غيّرت المعادلة القديمة التي كانت تضطر قوى التغيير إلى الاعتماد على دعم دول أخرى في نضالها السياسي، كما كان الحال في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين.

إن عملية التزاوج بين تكنولوجيا المعلومات والاتصال قد نتج عنها ظهور ما يعرف بظاهرة التخطي المعلوماتي للحدود القومية، وهي ظاهرة يحل فيها بدرجات متفاوتة تنظيم الشّعوب في مجموعات أفقية مما يؤدي إلى تهميش الثقافات القومية، ويتداخل التّخطي المعلوماتي مع التخطي الاقتصادي والتجاري فإذا كانت الشركات متعددة الجنسيات تمثل خط الاختراق الأول للحدود السياسية والاقتصادية فإن وسائل الإعلام المتزاوجة مع المعلومات تمثل خط الاختراق الثاني للحدود الاجتماعية والثقافية، هذا وقد أدى تزاوج وتداخل التخطي التجاري والتخطي المعلوماتي للحدود القومية إلى ظهور إشكاليات تتعلق بالذاتية الثقافية وكيفية الحفاظ عليها في مواجهة الهيمنة الثقافية لدول الشمال، مما طرح مجددا الحاجة إلى خلق نطاق إعلامي علمي يحقق التّوازن والعدالة الاتصالية والمعلوماتية[1].

يقول"هربرت شيللر":"إنّ صناع القرار السّياسي الغربيين انشغلوا بالبحث عن بدائل تضمن استمرار السيطرة الغربية–وعلى وجه التحديد، الأمريكية–على الأوضاع الثقافية والاقتصادية الدولية، فاستقر رأيهم على التكنولوجيا كبديل، وتتضمن هذه الشبكات ببث كميات هائلة من الأخبار والمعلومات عبر دوائر عابرة للحدود القومية، وأكثر

[1] عواطف عبد الرحمن، الإعلام والعولمة البديلة، (القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، ط1، 2006م)، ص32.

من ذلك فإنها سوف تصبح في منأى عن الرقابة المحلية، ولذلك فإن هذا التوسع في الاستخدام العالمي للمعلومات بواسطة البث المباشر، وشبكات بنوك المعلومات سوف تكون له آثاره الخطيرة على الثّقافات القومية في الأعوام القادمة"[2].

وتعمقت المشكلة أكثر في الملامح الأساسية الآتية:

1. سيطرة عدد قليل من الدّول المتقدمة على صناعة الإعلام والاتصال، وتحويل هذه الصناعة من صناعة كثيفة الإبداع إلى صناعة تقليدية كثيفة رأس المال، حيث أصبح احتكار الإنتاج الإعلامي والمعلوماتي من أخطر أنواع الاحتكارات.
2. وجود تغيرات كبيرة في الخريطة الإعلامية الدولية متمثلة بالانفجار النوعي والكمي لآليات التحرير والتوزيع للإنتاجات، وبروز مجاميع بيانات للاتصالات العالمية، وتوجيه الذوق العالمي نحو إنتاجات الترفيه والتسلية والمعلومات.
3. التقدم الهائل في تكنولوجيا الكمبيوتر وتكنولوجيا الاتصالات خاصة فيما يتعلق بالأقمار الصناعية، وشبكات الألياف الضوئية، واندماج هذه العناصر في توليفات اتصالية عدة أبرزها شبكة الانترنيت.
4. اتجاه السّوق والمنافسة للعمل وفقا لنظرية داروين"البقاء للأصلح" وهذا يعني أن الدّول والأمم والشعوب التي لا تقدر على المنافسة، سيكون مصيرها الانقراض، بسبب الفجوة الكبيرة بين الدّول المتقدمة والنامية في مجال تكنولوجيا الإعلام والاتصال.

وقد ساهم التّحالف بين العلم والتقنية والثقافة في تعميق الهوة بين عناصر الهوية، بفعل الطبيعة التّفكيكية التي تأسست عليها الرؤية الحداثية المعاصرة الموجهة لسياق الكونية(Mondialisation)، والتي يبد أنّ تأثيراتها تجاوزت مفهوم العولمة (Globalisation)، بمنظوراتها الكلاسيكية الاقتصادية لتتجه إلى استثارة الثّقافات والمقدسات؛ والتي جعلت المجتمعات العالمية المعاصرة في وضعية تشرذم وتشتت دائم، ما ساهم في إعادة إحياء التّساؤل الكلاسيكي والمركزي حول الهوية، وبحث العناصر المرجعية المؤسسة لها، وبخاصة في ضوء تغيرات المجتمع المعاصر بظهور مجتمع موازٍ"مجتمع شبكي افتراضي"، أعاد صياغة منطق ومنطلقات التّواصل والعلاقات الإنسانية عبر التّكنولوجيا الرّقمية. لتكشف عن عجز الأطر التّقليدية والرّسمية عن الحفاظ على استقرار الهوية والخصوصات الثقافية بفعل تراخي دور المؤسسات المحلية التي ظلت لعقود تشرف على عملية نقل التراث الثّقافي ودعم القيم الحضارية الأصيلة المؤسسة لمضمون الهوية، فقد بدأت فعلا تفقد آليات المتابعة والتّوجيه.

---

[2] هربرت شيللر، الاتصال والهيمنة الثّقافية، ترجمة، وجيه سمعان عبد الوجيه، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1993)، ص 11.

إنطلاقا من هذا ستركز الورقة البحثية على دراسة وضع ومكانة الهوية/الهويات والخصوصيات الثّقافية الفردية والجماعية داخل المجتمعات الافتراضية(نقصد بالمجتمعات الافتراضية، المجمتعات التي تشكلت جراء الإنخراط الفردي والجماعي في الشّبكة العنكبوتية(الأنترنت) وتطبيقاتها الجديدة، واستخدامها كوجه اجتماعي لمجتمعاتنا المعاصرة)، في منظورها العالمي العام، وكذا منظورها المحلي والقومي(هويتنا وخصوصياتنا الثّقافية العربية والإسلامية).

وتتناول الموضوع في ثلاثة أجزاء رئيسية:

أولا: الإجراءات المنهجية للدّراسة.

ثانيا: المجتمعات الافتراضية وخصائصها.

ثالثا: مكانة ووضع الهّوية والخصوصيات الثّقافية في هذه المجتمعات.

أولا: الإجراءات المنهجية للدّراسة

1-إشكالية الدرسة:

في كتابه"ثورة السّيطرة The Control Revolution"، يسرد جيمس بنيجير" J.Beniger" مالا يقل عن(75) تسمية مختلفة تداولتها الطّروحات الأكاديمية والاصطلاحات الشّعبية بين عامي 1950 و1985، حاولت كل واحدة منها تحديد الخصائص الحاسمة والمغيّرة لملامح الحقبة المعاصرة من تاريخ البشرية[3]، فقد تداولت الدّراسات الاقتصادية مسميات: مابعد الصّناعة، واقتصاد المعرفة والمعلومات، ومجتمعات المعلومات، واستخدمت الدّراسات الفلسفية والفكرية؛ مابعد الحداثة والعولمة، وأطلقت الدّراسات في مجال الإعلام والاتصال مصطلحات؛ مجتمعات الإعلام والمعلومات، والمجتمعات الإفتراضية، والمجتمعات الشّبكية، وغيرها من المسميات المدللة على خصائص عصرنا الذي نعيشه.

وتبرز أهم خصائص هذا العصر وفقا لاصطلاحات الإعلام والاتصال في:

-العالمية أو الكونية مقابل المحلية.

- واللازمانية واللامكانية لنشر المعلومات وتداولها عبر الوسائط المتعددة، مقابل الحدود الزمكانية للتّحكم في تدفق الأخبار والمعلومات من وسائل الإعلام الحكومية إلى شعوبها(جمهورها).

[3]Beniger,J:The Control Revolution:Technological and Economic Origins of the Information Society,MA: Harvard University Press,1986

– التّوتر بين الهوّية والخصوصيات الثّقافية المرتبطة بالمكان والتّاريخ واللّغة القومية، وبين الشّبكات التي تتخطى الحواجز المكانية(على حد تعبير كاستلز Castells) [4]، فالتّقانات الرّقمية يمكن أن تمثل وضعا يكون فيه النّاس أقل سيطرة على هوياتهم وخصوصياتهم الفردية والجماعية من ذي قبل[5].

وقد أعادت عملية الإنخراط غير المسبوق في مجتمعات التّقانة وأدواتها طرح النّقاشات الجماعية والاجتماعية حول الهويات وعناصرها وديمومتها واستمرارها في مقاومة عمليات التّنميط أو التّحنيط، بين من ينذر بتحولات كبرى وجذرية عليها، وبين من يقلل من حدة التأثيرات التّكنولوجية والمجتمعات الإفتراضية في الهويات، ويرى أن هناك مبالغة كبيرة اعتبار الأنترنت أحد العوامل الرئيسية في صنع الهوية المعاصرة.

وهو المنطلق والغاية البحثية لهذه الدّراسة التي ستركز –كما أشرنا سابقا– على دراسة"وضع ومكانة الهوية/الهويات والخصوصيات الثّقافية الفردية والجماعية داخل المجتمعات الافتراضية"، وتطرح تساؤلا رئيسيا هو: **ما مكانة ووضع الهّوية والخصوصيات الثّقافية في المجتمعات الإفتراضية ؟**

2– تحديد المفاهيم:

2–1 الوجود الإفتراضي(Virtual Presence): أحد المصطلحات التي تشكلت اثر الإنخراط الفردي والجماعي في المجتمعات الافتراضية، ويتشكل هذا الوجود تدريجيا من خلال إثبات المستخدم حضوره على الخط(On-line)، ومن تفرده في عرض هويته، وتمييزها عن الآخرين، ويتحقق ذلك من خلال الآتي[6]:

– بروز الفرد كفاعل أو متفاعل أثناء عمليات التواصل عبر شبكة الأنترنت وتطبيقاتها بالمشاركة والتعليق والتفاعل بأي شكل من أشكال التفاعل الأخرى.

– طريقة ومدى استخدام التواصل المتزامن (الفوري) وغير المتزامن، فالتواصل عبر وسائط وأدوات الإعلام الجديد تستلزم الردود ةالاستجابات الفورية والمتزامنة.

– درجة ارتباط المستخدم بهويته الإفتراضية من خلال عمليات التحديث التي يجريها باستمرار على صفحاته، ويتشاركها مع أصدائقه والمتابعين له، وعلاقة كل ذلك بالممارسات الواقعية.

---

[4] M.Castells: The Rise of the Network Socity, Oxford: Blackwell, 1996.

[5] دارن باربي، المجتمع الشّبكي، ترجمة أنور الجمعاوي،(المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط1، 2015)، ص193.

[6] كلثوم بيبيمون،"السّياقات الثّقافية الموجهة للهوية الرّقمية في ضوء تحديات المجتمع الشّبكي من التداول الإفتراضي إلى الممارسة الواقعية"، مجلة إضافات(المجلة العربية لعلم الاجتماع)، (مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، عدد 33، 34، شتاء وربيع 2016)، ص 76، 77.

2-2 **الجماعات الإفتراضية** (Virtual Communities) تُعرف الجماعات الافتراضية بأنها"تجمعات اجتماعية وثقافية تظهر في الشّبكة عندما يكون هناك عدد كاف من الأفراد، يشاركون في مناقشات عامة خلال وقت كاف، ويضعون من وجدانهم ما يكفي لنسج شبكات من العلاقات الإنسانية في الفضاء الإلكتروني"[7][8].

انطلاقا من هذا التّعريف يمكن أن نستنتج بأن الجماعات الإفتراضية تتميز:

- توفر عدد معين كحد أدنى.
- إلزامية الدخول في نقاش عام.
- الاستمرارية الزمنية في النقاش.
- العلاقات غير محددة ومعروفة مسبقا.
- العلاقات تتشكل من خلال النقاش العام.

كما يمكن إضافة مميزات عدة للجماعة الافتراضية؛ من خلال الممارسة العملية من داخل الفضاء العمومي الافتراضي، وتفكيك عدة حركات افتراضية أهمها: غياب الرّمز أو القائد أو القيادة الإدارية.

- طبيعة العلاقة فيها إرادية، وليس ضرورية وفقا للقرابة العائلية أو الجغرافية أو الدينية.
- صناعة نخبة جديدة بدل النخبة الواقعية.

3-2 **الهوية الإفتراضية**(Virtual Identity): الهوية التي تنتج أو تتشكل على شبكة الأنترنت بصفة عامة أو على أحد تطبيقاتها، من طرف المستخدمين والتي يفترض أن تكون بمثابة إعادة عرض للهوية الحقيقية في الملفات الشّخصية، أو إنتاجا لهوية غير حقيقة تختلف عن تلك التي يكتسبها المستخدم في الواقع يطلق عليها "الهوية الافتراضية" .

2-4 أدوات ووسائط الإعلام والاتصال الجديدة: يستخدم مصطلح"الإعلام الجديد" في الأدبيات التّنظيرية العربية كترجمة للمقابل الإنجليزي (New Media)، والفرنسي (Nouveaux medias)، وواضح أنه حدث خطأ في تعريب المسمى الأجنبي فأصل كلمة (Media) هو(Medium) التي تعني (الوسيط أوالناقل)، ولذلك عُربت كلمة (Multimedia) سابقا إلى (الوسائط المتعددة) ولم تعرب إلى(الإعلام المتعدد)، ولذلك يرى بعض الباحثين أنّ استخدام كلمة "الميديا الجديدة" هو الأصح[9]، وهو- حسب رأيي- توجه لا يحل الإشكال في استعمال المصطلحات المتولدة

---

[7] أحمد زايد:"عولمة الحداثة وتفكيك الثقافات الوطنية"، عالم الفكر، (مجلس النّشر العلمي، جامعة الكويت، مجلد 3، عدد سبتمبر 2003)، ص61.

[9] الصّادق الحمامي، الميديا الجديدة؛ الابستيمولوجيا والإشكالات والسّياقات، (تونس: المنشورات الجامعية بمنوبة، طبعة1، 2012)، ص 13.

في بيئات أخرى أنتجتها، سواء أكانت في مجال الإعلام والاتصال أو أي علم آخر، ويُفترض في هذه الحال أن نحتكم إلى التّرجمة الصّحيحة للكلمات، والمعنى المقصود من استخدام المصطلح عند من استعمله أول مرة أو أطلقه؛ تسمية أو توصيفا أو اصطلاحا.

واستنادا إلى هذه القاعدة في التّرجمة، يصبح التّعريب الصّحيح لـ(New Media) هو(الوسائط الجديدة)؛ المستخدمة في مجال الإعلام والاتصال على حد سواء، ومع أنني مقتنعة جدا بأن كلمة"الوسائط الجديدة" هي الأصح ترجمة وتعريبا لاصطلاح (New Media)، إلا أنني سأستخدم في دراستي هذه مصطلح"الإعلام الجديد".

ومصطلح الإعلام الجديد(New Media)، أوما يعرف كذلك بالإعلام الرّقمي(Digital media) حسب الترجمة المعتمدة يشير إلى مجموعة من الأساليب والأنشطة الرّقمية الجديدة التي مكنت من إنتاج ونشر واستهلاك المحتوى الإعلامي بمختلف أشكاله من خلال الأجهزة الإلكترونية(الوسائط) المتصلة أو غير المتصلة بالانترنت. وأتاحت إمكانيات هائلة للتّواصل والاتصال الاجتماعي من خلال خدمات الهاتف المحمول، والشّبكات الاجتماعية على الانترنت، وعلى الرّغم من أنّ الانترنت ليست المثال الوحيد على وسائط الإعلام والاتصال الجديدة إلا أنها كانت ومازالت السّبب الرئيسي لوصف هذا النّمط من الإعلام والاتصال بالجديد.على ذلك يمكن تقسيم أدوات ووسائط الإعلام والاتصال الجديدة إلى الأقسام الأربعة الآتية:

-أدوات ووسائط قائمة على شبكة الانترنت Online وتطبيقاتها، وهي جديدة كليا بصفات وميزات غير مسبوقة، تنمو بسرعة ، وتتوالد عنها مجوعة من تطبيقات لا حصر لها.

-أدوات ووسائط قائمة على الأجهزة المحمولة، بما في ذلك أجهزة قراءة الكتب والصّحف. وهي أيضا تنمو بسرعة، وتنشأ منها أنوع جديدة من التّطبيقات على الأدوات المحمولة المختلفة ومنها أجهزة الهاتف والمساعدات الرّقمية الشّخصية وغيرها.

- أدوات ووسائط قائمة على منصة الوسائل الإعلامية التّقليدية مثل الرّاديو والتّلفزيون التي أضيفت إليها ميزات جديدة مثل التفاعلية والرّقمية والاستجابة للطلب.

- أدوات ووسائط قائمة على منصة الكومبيوتر، ويتم تداول هذا النّوع، إما شبكيا أو بوسائل الحفظ المختلفة مثل الاسطوانات الضوئية، ويشمل العروض البصرية وألعاب الفيديو والكتب الإلكترونية وغيرها".

3- منهج الدّراسة ومداخلها النّظرية:

تنتمي دراستنا هذه إلى البحوث الوصفية التّفسيرية"Descriptive and Explanatory Research"، لذلك سنعتمد المنهج التّحليلي الوصفي من خلال قرائتنا للأدبيات النّظرية والدّراسات التّطبيقية الميدانية التي أجريت في الموضوع ومن ناحية المداخل النّظرية فقد ارتكزت البحوث العلمية حول وسائل ووسائط الاتصال الحديثة على نموذجين تفسيريين:

– النّموذج الأول، ويتمثل في الحتمية التّكنولوجية، وينطلق من قناعة بأن قوة التّكنولوجيا هي وحدها المالكة لقوة التغيير في الواقع الاجتماعي، والنّظرة التفاؤلية للتكنولوجيا تهلل لهذا التغيير، وتراه رمزا لتقدم البشرية، وعاملا لتجاوز إخفاقها في مجال الاتصال الدّيمقراطي والشّامل الذي تتقاسمه البشرية. والنّظرة التّشاؤمية التي ترى التكنولوجيا وسيلة للهيمنة على الشّعوب المستضعفة، والسّيطرة على الفرد، فتقتحم حياته الشّخصية وتفكك علاقاته الاجتماعية.

–النّموذج الثّاني، ويتمثل في الحتمية الاجتماعية التي ترى أن البُنى الاجتماعية هي التي تتحكم في محتويات التّكنولوجيا وأشكالها، أي أن القوى الاجتماعية المالكة لوسائل الاعلام هي التي تحدد محتواها. وإن البحوث النّوعية التي تتعمق في دراسة الاستخدام الاجتماعي لتكنولوجية الاتصال لا تنطلق من النّموذجين، لأنها لا تؤمن بأن ما هو تقني ويتمتع بديناميكية قوية، يوجد في حالته النّهائية، كما أن البُنى الاجتماعية ليست منتهية البناء.

ولعل هذه الحقيقة تنطبق أكثر على المجتمعات العربية التي تعرف حركية اجتماعية متواصلة لم تفض إلى صقل اجتماعي تتمايز فيه البنى الاجتماعية والسّياسية، فالقوى الاجتماعية المتدافعة، في المنطقة العربية، مازالت قيد الصياغة والتشُّكل. كما أن المنطلقات الفلسفية للبحوث الكمية لا تسمح بالاعتقاد بوجود خط فاصل بين ما هو تقني وما هو اجتماعي، لأنهما يتفاعلان، باستمرار، في الحياة اليومية.

بمعنى أن البعد الفكري للمنهج النّوعي يسمح بالملاحظة الدقيقة لكيفية ولوج ما هو تقني في الحياة الاجتماعية، ولا يعطي الفرصة للأشخاص الذين يتعاملون مع وسائل الاتصال الحديثة بتشخيص ما هو تقني أو اجتماعي فقط، بل يسمح بإبراز تمثلهم لما هو تقني، والذي على أساسه يتضح استخدامهم له[10].

ثانيا: المجتمعات الافتراضية، المفهوم والخصائص

ظهر مصطلح"المجتمعات الإفتراضية" لأول مرة عنواناً لكتاب قدّمه هاورد راينغولد(Howard Rheingold) وعرف المجتمعات الإفتراضية بأنها:"جماعة من البشر تربطهم اهتمامات مشتركة، ولا تربطهم بالضرورة حدود جغرافيّة أو أواصر عرقيّة أو قبليّة أو سياسيّة أو دينيّة، يتفاعلون عبر وسائل الاتصال ومواقع التّواصل الاجتماعي الحديثة، ويطوّرون فيما بينهم شروط الانتساب إلى الجماعة وقواعد الدّخول والخروج وآليات التّعامل، والقواعد والأخلاقيات التي ينبغي مراعاتها"[11].

---

[10] نصر الدّين العياضي، "الرّهانات الابستمولوجية والفلسفية للمنهج الكيفي؛ نحو أفاق جديدة لبحوث الإعلام والاتصال في المنطقة العربية"، أبحاث المؤتمر الدّولي"الإعلام الجديد: تكنولوجيا جديدة... لعالم جديد"، المنعقد بجامعة البحرين، من 7– 9 أبريل2009، منشورات جامعة البحرين طبعة 1، ص18، 19.

[11] Howard Rheingold: The Virtual Community: Finding Commection in a Computerized World, (Addison-Wesley Longman Publishing Co., Inc. Boston, MA, USA ,1993), p10.

ويعرّف دي موور ووايجاند المجتمع الافتراضي بأنه:"نظام اجتماعي تكنولوجي"، أما "إريكسون" فيرى أنّ المجتمع الافتراضي كمصطلح يشير إلى المحادثة والحوار المبني على الكمبيوتر، وأنّ الحوار مهما كان نوعه مبني أساسا على التّفاعلية بين العديد من المتصلين والمستخدمين[12].

وظهر مصطلح المجتمع الشّبكي(The Network Society) على يد عالم الاجتماع المعاصر"مانويل كاستيلز" العام 1996 في كتابه الذي صدر في ثلاث أجزاء بعنوان:"العصر المعلوماتي، الاقتصاد، المجتمع والثقافة"، والذي ناقش فيه الملامح الأساسية للمجتمع المعلوماتي، ووفقا لكاستلز:"يتكون المجتمع الشّبكي من شبكات إنتاج وقوة وتجربة من شأنها أن تنشئ ثقافة واقعي افتراضية من التدفقات العالمية التي تتعالى على الزّمان والمكان"[13] .

وقد ناقش دارن باري في كتابه"المجتمع الشّبكي" أساسيات المصطلح وتجلياته وعلاقاته بعدد من العناصر، في خمسة فصول[14]، تناول الفصل الأوّل منها والمعنون بـ"المجتمع الشّبكي" موقع أطروحة المجتمع الشّبكي في علاقته بعددٍ من المقاربات والنظريات التي برزت على السّاحة في العقود الأخيرة من القرن العشرين، وعرض تحليلًا معمّقًا لطبيعة المجتمع الشّبكي وعناصره الرئيسة، وللكيفية التي تتفرّع بها تلك العناصر في الهويّة والاقتصاد والسياسة؛ وذلك في إطار مقاربة شمولية للمجتمع المعاصر.

وتطرّق الفصل الثّاني(التّقانة الشّبكية) إلى طبيعة العلاقة بين التّشكيلة الاجتماعية والتّقانة عمومًا؛ مناقشًا مختلف نظريات التّقانة، وسمات التّقانة الشّبكية المعاصرة، بوصفها الأهمّ بين الآثار الاجتماعية للتقانة والفرص التي تتيحها، ووضح الفصل الثّالث(الاقتصاد الشّبكي) مفهوم الاقتصاد الشّبكي، والعلاقة بين الرأسمالية والمجتمع الشّبكي؛ مشيرًا إلى أنّ المجتمع الشّبكي مَهْما تكن طبيعته هو مجتمع رأسمالي، وأنّه لا يمكن فصل التنظيم الاقتصادي للمجتمع الشّبكي عن دينامية العولمة الاقتصادية، وناقش الفصل الرّابع (السّياسات الشّبكية) العلاقة بين السّياسة والمجتمع الشّبكي عبر ثلاث طرائق:

– تتمثّل الأولى في فحص الأفول المزعوم للدّولة القومية بتأثير من ديناميات العولمة، بوصف الدّولة القومية الوعاء الأوّل للقوة السّياسية والتّنظيم والتّطبيق العملي في الحقبة الراهنة،

– وتتمثّل الثّانية في التّدقيق في"السّياسات الجديدة" التي تقدَّم على أنّها الحالة الدّائمة للأوضاع السّياسية في المجتمع الشّبكي.

– أمّا الطريقة الثّالثة، فهي تقويم التوقّعات الدّيمقراطية للحياة السّياسية في خضمّ المجتمع الشّبكي.

---

[12]De Moor Aldo,Weigand Hans:"Formalizing the evolution of virtualcommunities", Information Systems 32 (2), 2007, pp 223-24

[13]M.Castells: End of Millennium, (Oxford: Blackwell,1998), p370

[14] دارن باري، مرجع سابق، 2015.

وتناول الفصل الخامس(الهوية الشّبكية)وأثر التّقانة الشّبكية في هويّة كلٍّ من الفرد والجماعة، وعن نزع مادة الهويّة والجماعة من مناطقها لتأخذ في التدفّق عبر الحدود الجيوسياسية بيسرٍ متزايد، موضحًا أنّ دور الدولة القومية لم يتراجع فقط في ما يتعلق بالنّشاط السّياسي والاقتصادي، وإنّما كذلك في قدرتها على استيعاب الهوية والثّقافة والجماعة، لنصل إلى وضعية"ما بعد القومية ."

وتنطبق عبارة"المجتمع الشّبكي"كما يرى دارن باربي، على المجتمعات التي تظهر فيها خصيصتان أساسيتان[15]:

- **الأولى:** وتتمثَّل في أنَّ هذه المجتمعات توجد فيها تقانة معقَّدة(رقمية على وجه التّحديد) من الاتصال، وتكون إدارة توزيع المعلومات على نحو شبكي، وتضم تقانة تشكِّل البنية التّحتية الأساس التي تتوسَّط عدداً متزايداً من الممارسات الاجتماعية والسّياسية والاقتصادية.

- **الثّانية:** فهي إعادة إنتاج الشّبكة ومأسستها في كلِّ مكان من المجتمعات الشّبكية«وبينها»، باعتبارها الشّكل الأساس للتنظيمات والعلاقات الإنسانية، عبر نطاق واسع من الهيئات والجمعيات الأهلية والسياسية والاقتصادية.

ويتميز المجتمع الشّبكي حسب "كاستلز" بالخصائص التالية[16]:

-تقوم أسس المجتمع الشّبكي الاقتصادية على اقتصاد رأسمالي"معلوماتي".

-ينتظم اقتصاد المجتمع الشّبكي على نحو عالمي، وعلى غرار شبكي.

-في المجتمع الشّبكي تتحول تجربة الزمان والمكان إلى"زمن لازمني"، وإلى "مكان للتدفقات".

-في المجتمع الشّبكي تتوقف القوة والضعف على النفاذ إلة الشبكة والسيطرة على التدفقات.

-المصدر الرئيسي للصراع والمقاومة في المجتمع الشّبكي هو التناقض بين الطابع اللامكاني للشبكة وتجذر المعنى الإنساني.

ويتفق الباحثون على أنّ أهم الخصائص المشتركة للمجتمعات الإفتراضية هي[17]:

-الغرض المشترك بين الأعضاء.

-الوصول والنّفاذ إلى الموارد المشتركة، ووجود سياسات ولوائح لتحديد الوصول إلى هذه الموارد.

-وجود المعلومات وتوفرها للجميع، والدّعم والخدمات بين الأعضاء.

-وجود إطار مشترك للتقاليد الاجتماعية واللّغة والبروتوكولات المتبعة.

---

[15] دارن باربي، مرجع سابق، ص39.

[16]M.Castells: The Rise of the Network Society, p14-19.

[17] بايوسف مسعودة:"الهوية الإفتراضية: الخصائص والأبعاد؛ دراسة استكشافية على عينة من المشتركين في المجتمعات الإفتراضية"، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية(عدد خاص بفعاليات الملتقى الدّولي الأول حول الهوية والمجالات الاجتماعية في ظل التّحولات السّوسيوثقافية في المجتمع الجزائري، المنعقد بجامعة ورقلة، الجزائر، يومي 27، 28 فيفري 2011)، ص469.

-الوعي بحدود العضوية وهوية الجماعة.

-وجود المعايير المبدئية للإشتراك في المجتمع المعني.

-العضوية التطوعية والاسهامات المختلفة لدعم المجتمع.

ولا يحدث التّواصل في المجتمعات الأفتراضيّة وجها لوجه face-to-face، بل من خلال قنوات اتصال إلكترونيّة تستخدم فيها الكلمة والصورة والصوت، أو ما ينتج عن مزج هذه الطرائق. إنّ الكتابة حالة من التواصل لا يُسمَع فيها صوت ولا تُرى فيها صورة, وقد وفَّرت وسائل الاتصال الحديثة التفاعل بالصوت والصورة، غير أنّ التفاعل من خلال هذه الوسائل والوسائط يظلّ يفتقر إلى دفء المشاعر الإنسانيّة وحميميّتها.

ويتسم المجتمع الافتراضي بمجموعة من السّمات الآتية[18][19]:

- المرونة وانهيار فكرة الجماعة المرجعيّة بمعناها التقليدي، فالمجتمع الافتراضي لا يتحدّد بالجغرافيا بل الاهتمامات المشتركة التي تجمع معاً أشخاصا لم يعرف كلٌ منهم الآخر بالضرورة قبل الالتقاء إلكترونياً.

- لم تعد تلعب حدود الجغرافيا دوراً في تشكيل المجتمعات الافتراضيّة، فهي مجتمعات لا تنام، يستطيع المرء أن يجد من يتواصل معه في المجتمعات الافتراضيّة على مدار الساعة.

- ومن سماتها وتوابعها أنّها تنتهي إلى عزلة، على ما تعد به من انفتاح على العالم وتواصل مع الآخرين، فقد أغنت الرسائل النصيّة القصيرة، وما يكتبون ويتبادلون على الفايس بوك والتويتر عن الزيارات، من هنا لم تعد صورة الأسرة التي تعيش في بيت واحد بينما ينهمك كلّ فرد من أفرادها في عالمه الافتراضي الخاص، لم تعد مجرّد رسم كاريكاتيري، بل حقيقة مقلقة تحتاج مزيدا من الانتباه والاهتمام.

- لا تقوم المجتمعات الافتراضيّة على الجبر أو الإلزام بل تقوم في مجملها على الاختيار.

- في المجتمعات الافتراضيّة وسائل تنظيم وتحكّم وقواعد لضمان الخصوصيّة والسريّة، قد يكون مفروضا من قبل القائمين، وقد يمارس الأفراد أنفسهم في تلك المجتمعات الحجب أو التبليغ عن المداخلات والمواد غير اللائقة أو غير المقبولة.

- أنّها فضاءات رحبة مفتوحة للتمرّد والثورة، بداية من التمرّد على الخجل والانطواء وانتهاء بالثورة على الأنظمة السياسيّة.

---

[18]Daniel Downes,The Poetics of Cyberspace :Interactive Realism, (McGill Queen's University Press, 2005), p20.

K . Ann Renninger, Shumar Wesley, Building Virtual Communities, (Cambridge University Press, 2002), p27.

– تتسم المجتمعات الافتراضية بدرجة عالية من اللامركزية وتنتهي بالتدريج إلى تفكيك مفهوم الهويّة التقليدي، ولا يقتصر تفكيك الهويّة على الهويّة الوطنيّة أو القومية بل يتجاوزها إلى الهويّة الشخصية، لأنَّ من يرتادونها في أحيان كثيرة بأسماء مستعارة ووجوه ليست وجوههم، وبعضهم له أكثر من حساب.

ثالثا: مكانة ووضع الهّوية والخصوصيات الثّقافية في المجتمعات الإفتراضية

تبرز المناقشات والطّرحات حول موضوع الهويات والخصوصيات الثّقافية في المجتمعات الإفتراضية اتجاهين اثنين:

– **الأول:** وتمثله بعض الرؤى والاتجاهات النّظرية الحديثة في مجال الإعلام والاتصال ونظريات ما بعد الحداثة في مجال الفكر والفلسفة المعاصرة على أنّ وسائل الإعلام قامت وبكفاءة بتشكيل وإعادة تشكيل الهويات، والقضاء على الخصوصيات الثقافية، أو تنميطها على أقل تقدير، فتكنولوجيا الإعلام والاتصال قد غيّرت جذريا الوعي الاجتماعي وأزالت عنصر المكان الذي كان أساس التّجمع، إذ كان لابد من وجود أرض يجتمعون عليها لتحالفهم وتفاعلهم، إلاّ أنّه وبوجود وسائل الإعلام الجديد لم يعد التّفاعل على أرض واحدة هو الباعث الأول للتّجمع، بل أصبح التّفاعل يتم عبر تكنولوجيا ووسائط المعلومات والإعلام، وتحولت وسائل الاتصال الجماهيري التّقليدية منها والجديدة إلى أداة لصياغة الثّقافة أكثر مما هي وسيلة من وسائل الثّقافة.

– **الثّاني:** وتمثله كذلك اتجاهات من داخل علم الاجتماع والإعلام والاتصال، ويرى أنه:"من المبالغة اعتبار شبكة الأنترنت وتطبيقاتها أحد العوامل الرّئيسية في صنع الهويات أو عناصر الخصوصيات الثقافية في حقبة مابعد الحداثة، لأن الاستنتاجات والتّحليلات في هذا الخصوص تتم من خلال التركيز المفرط على أدلة حكائية مستمدة من ممارسات هامشية تماما بالمقارنة مع الميول السائدة في استخدام الأنترنت. وتؤكد البراهين والتجارب التي أجريت مؤخرا أن عدد الأفراد الذين يستخدمون الإنترنت بانتظام من أجل بناء هويتهم هو عدد محدود جدا... وأن معظم النّاس يدخلون العالم الإفتراضي حاملين هويات مكتملة وليسوا ساعين إلى إيجاد هويات جديدة"[20].

والحقيقة أن فكرة تأثر الهويات والخصوصيات الثقافية بوسائل ووسائط التّكنولوجيا الاتصالية ليست وليدة عصر الإعلام الجديد وتطبيقاته، فقد ناقشها بعض الباحثين في علم الاجتماع والاتصال منذ بدايات القرن العشرين، وصعود موجة اعتماد واستخدام وسائل الإعلام والاتصال في تلك الحقبة، فقد كتب جون ديوي في العام 1916 أنه"لا يغدو الأشخاص مجتمعاً بالعيش في تقارب مادي، كما لا يتوقف شخص عن التّأثير الاجتماعي لكونه يعيش بعيدا بأميال عن الآخرين، فقد يشكل كتاب أو رسالة رابطة بين بشر تفصلهم آلاف الأميال وتكون أشد علائقية من تلك التي تربط من يعيشون تحت السّقف ذاته"[21].

---

[20] دارن باري، مرجع سابق، ص192.

[21] J. Dewey: Democracy and Education, (New York: Macmillan, 1964), p4,5.

كما أشار مليفين وبير منذ ستينيات القرن الماضي إلى إمكانية أن تؤدي النزعة الحضرية الحديثة المرتبطة بتراجع العلاقات الجماعية العضوية إلى ظهور"جماعات من دون تجاور"[22]. ففي عصر الاتصال الجماهيري وتقانات النّقل ما عادت الجماعات بحاجة إلى تكون موجودة في مكان واحد، ولا بحاجة إلى أن يتلاقى أفرادها وجها لوجه.

وفي رأي كاستلز يتسم صعود المجتمع الشّبكي بانهيار شرعية"الهويات المشرعنة"[23]، جّراء العولمة الاقتصادية والدينامية التّقانية، وتراجع الدّولة القومية وغيرها من المؤسسات التّقليدية على توجيه أو السّيطرة على الهويات الجماعية في المجتمع.

وتفصح القراءة التّحليلية في أدلة وبراهين الإتجاه الأول عن مظاهر متعددة لتأثر الهويات والخصوصيات الثقافية في المجتمعات الإفتراضية أهمها:

1- التّجرد من الخصوصية: فانخراط الفرد أو الجماعة في المجتمعات الإفتراضية جردهم من الخصوصيات، وأخرجهم إلى العالم المشاع، وبالتالي جرد الهوية من مركزيتها في إحكام سلوك و أفعال الأفراد و الجماعات، ومن أبرز المؤشرات الدّالة على ذلك جملة من المظاهر التي أشارت إليها نتائج البحوث والدراسات في المجال[24]:

- فك الارتباط بالوطن.
- فك الارتباط بالرّموز القومية(الذّاكرة المشتركة).
- فك الارتباط بالرّموز الدّينية والتّاريخية.
- تغير اللّغة المستعملة في التّواصل والإشارة والتّحية والرّموز.

والأكثر من ذلك تجرد الفرد من الذّات والأنا الإنسانية وتحوله إلى مجرد اسم مستعار أو رقم جهاز، أو صورة رمزية؛ ففي المجتمعات الرّقمية تنمحي خصائص الحضور الفيزيائي، وتفقد العناصر الضّاهرية للفرد والتي يعرف عن

---

[22]M.Weber:"Order in Diversity:Community without Propinquity", in: L. Wingo, ed, Cities and Space, (Baltimor: Johns Hopkins University Press, 1963).

[23]يميز كاسلتز في كتابه"سلطة الهوية" بين ثلاثة أصناف مختلفة من الهويات:

-الهويات المشرعنة: وهي التي تمليها المؤسسات المهيمنة والإيديوجيات لفرض رؤيتها لكيفية بناء الأدوار والعلاقات الاجتماعية، وترسم هذه الهويات حدود المجتمع المدني في سياق مخصوص، مثل المواطنة.

-الهويات المقاومة: وتتشكل معارضة للهويات المشرعنة في مجتمع ما، وهي هويات تتحدى المجتمع المدني، مثل هويات الأقليات.

-الهوية باعتبارها مشروعا: تبني من خلاله الأطراف الاجتماعية الفاعلة هوية جديدة تعيد تحديد وضعها في المجتمع، لتغيير بنية المجتمع كله، وتقاوم هذه الهويات كذلك شرعية المجتمع المدني وتتحداه، مثل الهويات التي تقف وراء حركات السلام العالمي.

[24] عبد الخالق بدري:"الجماعات الإفتراضية ومسألة الهوية"،ج2، مركز الدّراسات والأبحاث في القيم، المملكة المغربية.
أخر زيارة للموقع كانت بتاريخ 2018/2/24 http://www.alqiam.ma/Article.aspx?C=5654 .

طريقها مثل المظهر واللّباس واللون والهيئة والجنس وغيرها؛ ويصبح الفرد يعرف من خلال عنوان جهاز الحاسوب أو عنوان اسم المجال أو عنوان البريد الإلكتروني أو الاسم المستعار أو الصورة الرمزية التي يضعها وغيرها من الأشياء التي قد لاتعكس هويته الحقيقية أو لا تقدم القدر الكافي من المعلومات لمعرفته.

وفي هذا الصدد بحثت دراسة"**التّمثيل الذّاتي والهوية الرّقمية**"، للباحثة الفرنسية(Fanny Georges)، خصائص الهوية الافتراضية في ضوء الشّبكات الاجتماعية[25]، وتوصلت إلى أن عملية عرض الذّات ليست إلا جزءا من الهوية الواقعية التي تعرض في المجتمع الافتراضي، حيث تنسج هذه الأخيرة من خلال عملية الجمع بين مجموع الرّموز التي اكتسبها الفاعل ومجموع الرّموز التي يتوفر عليها الجهاز؛ وهي انعكاس مباشر للمؤثرات الثّقافية المعرضة لها، ويتجلى ذلك من خلال استخدام مجموع العناصر الرّمزية القابلة للملاحظة على الشّاشة، والحاملة لمعاني معينة سواء أكانت كلمات أو صور أو مقاطع فيديو ذات أبعاد دلالية تساهم في التّعبير عنها.

وعلى غرار ذلك قسمت الباحثة الهوية الافتراضية إلى ثلاثة عناصر رمزية تعكس تمظهراتها في المجتمعالشبكي، تبرز ملامحها، والتغيرات الحاصلة لها[26]:

– الهوية التّصريحية: تبرز من خلال المعلومات التي يجري إدخالها من قبل صاحب الحساب مثل الاسم، تاريخ الميلاد، الصّورة...الخ عن :

– الهوية النّشطة: تبرز من خلال التّقارير الدّورية للصفحة عن نشاطات المستخدم مثل: y و x أصبحا صديقين، انضمام إلى مجموعة جديدة،.....

– الهوية المحسوبة: تبرز من خلال متغيرات عددية يعدها النّظام وتعرض على الصفحة، توضح عدد الأصدقاء، عدد المجموعات، تواريخ مهمة،... حيث تسمح هذه الأبعاد الثّلاثة بالتّحليل الكمي لتغيرات ملامح الهوية وسياق توجهاتها في الفضاء الرّقمي.

وناقشت الباحثة التونسية سهام النجار"الممارسات الاجتماعية المرتبطة بالإنترنت، وعلاقتها بتغير الهويات والروابط في المجتمعات المغاربية"، والتي أنجزت في إطار مشروع بحث أشرف عليه معهد البحوث المغاربية المعاصرة(IRMC) سعت من خلالها إلى إبراز دور شبكات التواصل الاجتماعي(فايسبوك) في تعزيز الرّوابط الاجتماعية بين الجماعات المهاجرة عن طريق تحليل مضمون الصّفحات الشّخصية لمستخدمين من الأقلية المهاجرة، ومجموعات افتراضية لذوي الاهتمامات المشتركة من المهاجرين، ولتحقيق مقاربة اجتماعية موضوعية اتجهت إلى بحث العناصر الهوياتية التي تعتمد عليها الجماعات المهاجرة للتعريف بنفسها عبر شبكات التّواصل

[25]Fanny Georges,"Représentation de Soi et Identité Numérique Une approche sémiotique et quantitative de l'emprise culturelle du web 2.0 ", Réseaux 2009/2 (n° 154), p. 165-193.
[26]Fanny Georges, "Représentation de Soi et Identité Numérique", p. 179.

الاجتماعي، بالتّركيز على كيفية استخدام وسائل الاتصال الحديثة لعرض هويتها وبنائها من جهة، وللمحافظة على روابطها الاجتماعية مع موطنها الأصلي من جهة أخرى. وكشفت الدّراسة عن وجود ثلاثة نماذج من الهويات الإفتراضية وهي[27][28]:

- هوية متجذرة: تضم الأقلية المهاجرة التي تعتز بأصولها وعرض ذلك عبر الصّفحة.
- هوية ثنائية القطب: تضم أقلية تعبر عن ارتباطها العميق في الوقت ذاته، بالوطن الأم، والبلد المستقبِل.
- هوية عالمية: تعرض انفتاحها على مختلف الثّقافات العالمية.

وأشارت الدّراسة إلى حدوث انتقال نوعي من هوية مغلقة إلى هوية متحولة، ثم هوية هجينة، وأن الروابط الاجتماعية التي جرى تعزيزها عبر الشّبكة لا تخفي حقيقة التّغيرات التي تعرفها الممارسات الهوياتية بفعل سهولة التّواصل والتفاعل عبر الفضاء الافتراضي، والتي تترجم مظاهر"الاستبطان الهوياتي" في فضاء ثقافي كوني يساهم بطريقة أو بأخرى في إعادة هيكلة الذّات الجماعية.

2- **تأثر العلاقات الاجتماعية التّقليدية:** وهو تحول آخر مرتبط بالإقبال الكثيف على مواقع التّواصل الاجتماعي خاصة على شبكة الإنترنت، والمتمثل في الإنعكاسات السّلبية للعلاقات الافتراضية على العلاقات الاجتماعية التقليدية. فقد نتج عن تطوّر المجتمعات الافتراضيّة حالات متفاوتة من الانقطاع عن العالم الواقعي وانهيار العلاقات الاجتماعيّة. فلم يعد النّاس يتزاورون كما كانوا يفعلون من قبل فقد أغنتهم الرّسائل النصيّة القصيرة ورسائل البريد الإلكتروني والبطاقات الإلكترونية وما يكتبون ويتبادلون على الفايس بوك تويتر وماي سابيس وسناب شات،...وغيرها عن التزاور والنقاش والحوار وجها لوجه، ولم تعد صورة الأسرة التي تعيش في بيت واحد بينما ينهمك كلّ فرد من أفرادها في عالمه الافتراضي الخاص مجرّد رسم كاريكاتيري، بل حقيقة مقلقة تحتاج مزيدا من الانتباه والاهتمام، فليست المجتمعات الافتراضية مدينة فاضلة واحدة ولا فضاء مفتوحا واحداً، بل مدنا تعج بالغث أكثر من السّمين، وفضاءات تتقاطع وتتوازى وهي بتعبير رينينجر وشومار فضاءات طوباوية متعدّدة على الأقل من وجهة نظر من يتمتعون بالإقامة فيها.

ولم تعد الجغرافيا ولا الانتماء العرقي أو القبيلة تتحكّم في وجهة الانتماء. أصبح الانتماء إلى الوطن الأمّ بمعناه التّقليدي تحية علم ونشيداً وطنياً يردّده التلاميذ في ملل في طوابير الصّباح. وأضحت جهود المدارس والمؤسسات الوطنيّة والمنظمّات غير الحكوميّة يواجهها طوفان من العوالم الافتراضيّة التي تأخذ روّادها وسكّانها – إلا من بلغ منهم مرحلة

---

[27] نقلا عن؛ كلثوم بيبيمون:"السّياقات الثّقافية الموجهة للهوية الرّقمية في ضوء تحديات المجتمع الشّبكي من التداول الإفتراضي إلى الممارسة الواقعية"، مجلة إضافات(المجلة العربية لعلم الاجتماع)، مرجع سابق، ص 73.

كافية من النّضج والوعي – بعيداً عن بيئتهم الطبيعية وعن ثقافتهم ولغتهم ودينهم، وعن واجباتهم اليوميّة والتزاماتهم الدّراسيّة أو المهنيّة والأسريّة.

وقد نشر هذا وكرّس في بناء الهويات والخصوصيات جملة أوهام، هي نفسها مكونات ثقافة التّقانة الإعلامية الجماهيرية، منها:

– وهم الفردية: أي اعتقاد المرء أن حقيقة وجوده محصورة في فرديته، وأن كل ماعداه أجنبي عنه لا يعنيه، ويعمل هذا الوهم على تخريب وتمزيق الرّابطة الجماعية التي تجعل الفرد يعي أن وجوده إنما يمكن في كونه عضوا في جماعة وفي طبقة وأمة، وبالتالي فوهم الفردية هذا إنما يهدف إلى إلغاء الهوية الجهوية والطبقية والوطنية القومية وكل إطار جماعي آخر ليبقى الإطار العالم–العولمي–هو وحده الموجود.

– وهم الخيار الشّخصي: الذي يكرس النّزعة الأنانية، ويعمل على طمس الرّوح الجماعية باسم الحرية الشّخصية.

– وهم الحياد: الذي يدفع بالأمور خطوة أخرى في الاتجاهين السّابقين، فمادام الفرد وحده الموجود، ومادام حرا مختارا فهو"محايد"، وكل النّاس والأشياء إزاءه"محايدون" أويجب أن يكونوا كذلك، وهكذا تعمل هذه الثّقافة من خلال"وهم الحياد" إلى تكريس التّحلل من كل التزام أو ارتباط بأية قضية.

وفي الصّدد تشير نتائج دراسة:"السّياقات الثقافية الموجهة للهوية الرقمية في ضوء تحديات المجتمع الشّبكي من التداول الافتراضي إلى الممارسة الوقعية"[29]إلى أنّ: حدود الهوية الرّقمية في العالم الافتراضي غامضة المعالم، إذ لا تحدها حدود جغرافية أو تضبطها منظومة قيمية، فهي فضاء مفتوح لا محدود لمواطنين كونيين من مختلف الأعراق والأجناس والخلفيات الثّقافية، وعليه، فهوية كل مواطن تتدرج من هويته الوطنية لتمتد إلى أبعاد عالمية، وأنّ الهوية الرّقمية وإن كانت تعكس جزءا بسيطا من تمثلات المجتمع الواقعي، فإن دينامياتها تكشف عن التّحديات المحيطة بها.

وتناولت دراسة:"الفضاء السّيبيري والعلاقات الاجتماعية في المجتمع الإفتراضي"، مفهوم الفضاء السّيبيري من النّاحية السّوسيولوجية ومدى تأثر العلاقات الاجتماعية به، وناقشت في نهايتها سؤالا محوريا:"هل من الممكن أن تحلّ المجتمعات الافتراضيّة محلّ المجتمعات الواقعيّة التّقليديّة ؟"، من خلال استبيان مصغّر شمل زملاء وأصدقاء الباحثة على

[29] مجلة إضافات(المجلة العربية لعلم الاجتماع)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، عدد33، 34، شتاء وربيع2016، ص(69–85).

فايس بوك، وتوصلت إلى أنه" لم يجب أحد عن السّؤال الإشكالي المطروح– بالإيجاب، بل أجمعت الإجابات على أن المجتمعات الواقعية تبقى هي الأصل، هي نقطة الانطلاق والرجوع"، وجاءت بعض الإجابات بالشّكل التّالي[30][31]:

– من الممكن التّخلى عن العالم الواقعى والاستغناء عنه بما يسمى العالم الافتراضى لظروف معينة مثل بُعد المسافة والرغبة فى التعامل مع جنسيات مختلفة وتبادل الثقافات أو معالجة الخجل لكن لفترة معينة، وبعد انتهاء حالة الانطواء والتقوقع داخل مواقع التواصل الاجتماعى نكون فى أشد الحاجه للخروج بالعلاقات والصداقات للعالم الواقعى الذى يمكننا من خلاله معرفة مع من نتحدث ومن نصادق ، وهذا يعنى أنه ليس هناك ما يسمى بالعالم الافتراضى وإنما هى وسيلة أسرع للتواصل مع عدد أكبر من الأصدقاء فى العالم الواقعى ...

– طبعا عملية التّواصل الاجتماعي المباشر من لغة منطوقة ولغة أخري غير مباشرة لها أهميّة كبري في فهم الاخر.

– الفرق بين العالم الحقيقي والافتراضي في نظري كالفرق بين الوردة في البستان والوردة البلاستك، الروح هي الفرق.

– اعتقد أنّه من الصعب أن أستغني بالعالم الافتراضي عن الواقعي ولكن لا أنكر فضل الفيس بوك في معرفتي باشخاص رائعين ما كنت عرفتهم بدونه ويسمح لنا بمعرفة حالتهم المزاجية مما ينشرون وأحوالهم جميعها .

– لقد أصبح ما يسمى بالعالم الافتراضي أو الإعلام الجديد مساحة لإبراز المواهب، وحافزاً للإبداع، وهنا إيجابية عالية سيما وأنَّ العقل العربي لديه استجابة عالية للإبداع والابتكار عند الحاجة، والإعلام الجديد دافع كبير للتعلم والتطوير في الثقافة العامة والتخصص، دعما وتطويرا للمورد البشري الفرد فهو من يغذي المحتوى العربي، وفرصة للتنافسية التكاملية في مختلف المجالات، فالانعكاسات السابقة هي أمثلة محفزة لصاحب كل فن ومجال في انعكاسات الإعلام الجديد على مجاله، وأوجب التّفكير والتخطيط للأجيال القادمة....

خاتمة:

لم تتوقف يوما محاولات الإنسان لتطوير الأدوات التي يستخدمها للتّعبير عن آراءه وأفكاره وإعلام المحيطين بها وكذلك الأدوات اللازمة لتوثيق خبراته ومعارفه. كما لم تصل رغبتنا الفطرية في التواصل مع المحيطين بنا والبعيدين عنا إلى نهايتها بعد. فكل الشواهد تؤكد على أن التطور في مجالات الإعلام والاتصال مستمر بقوة.

---

[30] نوال بركات، "الفضاء السيبيري والعلاقات الاجتماعية في المجتمع الإفتراضي–بين جغرافيا الواقع والجغرافيا الإفتراضية"، مجلة علوم الإنسان والمجتمع، (جامعة بسكرة، الجزائر، العدد12، نوفمبر 2014)، ص298 – 302.

والمتتبع لتطور الأدوات والوسائط التي استخدمها الإنسان في الإعلام والتّواصل، يكتشف بوضوح قوة تلك الغريزة الفطرية التي مكنت البشرية من تطوير أدواتها الإعلاميه بشكل لافت للنظر منذ أن نقش الإنسان الأول على جدران الكهوف مرورا باستخدام المصريين القدماء للغة الهيروغليفية المصورة واستخدام ورق البردي وحتى اختراع يوهان جوتنبرج لمطبعته ذات الأجزاء المعدنية في عام 1455. فحتى ذلك التّاريخ كان النّص والصّورة الثابتة المحفورة والمرسومة وكذلك الصوت البشري هى عناصر ومكونات المشهد الإعلامي والاتصالي في تلك الحقبة.

وظلت كذلك ولم تتغير حتى ونحن نعيش عصرالإعلام الجديد وترسانته الوسائطية في إنتاج وتوزيع ونشر المحتوى الإعلامي والاتصالي، فالذي تغير هو الأدوات والوسائل؛ من حيث الكم والكيف لتنتج ظواهر:"الاتصال الشّبكي"، و"الإعلام الرقمي"، و"المتلقي النشط"، و"المحتوى الالكتروني؛ المتشتت واللامتناهي"، و"صحافة المواطن"، و"المجتمعات الافتراضية"،و...غيرها من المصطلحات والظواهر المصاحبة للإعلام الجديد.

وقد برزت الإنترنت كأهم أداة من أدوات الإعلام الجديد في رسم المعالم الكبرى للتّغيرات الكبرى التي يشهدها العالم المعاصر في مجال الإعلام والاتصال على حد سواء، ووفرت المرونة الكبيرة في استخدامها وسهولة الولوج إليها، وتصفح بعض محتوياتها مجانا مجالا خصبا لحرية الحصول على المعلومة وتبادلها، ومنذ ظهور الانترنت وهي تتشكل تباعا مخرجة أنواعا من التّطبيقات والرّسائل الإلكترونية التي كونت عناوين لعدد من أشكال الاتصال الفردي والجماعي والجماهيري، تجازوت معظمها الرّقابة والعراقيل التي تتعرض لها وسائل الإعلام التقليدية، وأبرزت دور الفرد كمرسل للرسالة ومتفاعل معها بعد أن كان وظل لسنوات مستقبلا فقط، وأوجدت طرقا أخرى للتفاعل والتواصل الاجتماعي وبناء العلاقات الاجتماعية(وإن كانت افتراضية).

وأدى هذا التّحول في شكل ومضامين الاتصال ترسيخ ظاهرة الإعلام الجديد، الذي تغيرت فيه معايير العملية الاعلامية والاتصالية، وأطاحت أشكاله وتداعياته بالعديد من المفاهيم والمسلمات في المجال، وولدت مفاهيم ونظريات جديدة تعطي أبعادا مغايرة للإعلام والاتصال وسيلة ومحتوى، فقد أضحى المنتج الإعلامي أكثر ثراء وتعددا في أدواته وأوعيته، وأصبح المستهلك (المتلقي)سواء كان قارئا أو مستمعا أو مشاهدا أكثر نهما للمعلومات والأخبار بشكل غير مسبوق، ولم يقتصر تأثير الانترنت ومن ثم الإعلام الجديد على المحتوى والمتلقي فقط، بل امتد ليشمل جميع أطراف وعناصر العملية الاتصالية والإعلامية، وظهرت ممارسات جديدة تعلي من دور الجمهور الذي كان ومازال مهمشا في الاتصال الجماهيري التقليدي، وتضاءلت سيطرة المرسل والمؤسسة الإعلامية التقليدية على العمل الإعلامي، بعد أن أصبح بوسع كل من يستطيع استخدام الانترنت أو أي أداة أخرى من أدوات الإعلام الجديد أن يصبح إعلاميا بالشّكل الذي يرغب فيه.

وقد تداخلت كثير من العوامل التّقنية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية بصورة غير مسبوقة، جاعلة من الإعلام الجديد الرقمي قضية شائكة جدا، ومحورا لنقاشات متخصصة وعامة حول مدى تأثيره على أشكال التّواصل الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية التقليدية، وكذا تأثيرها على عناصر الهويات والخصوصيات الثّقافية للأفراد والجماعات والمجتمعات.

وتعد هذه الدّراسة واحدة من النّقاشات الممتدة حول موضوع"الهُّوية والخصوصيات الثّقافية في المجتمعات الإفتراضية"، لتفصح عن النّتائج الآتية:

1- تعرف المجتمعات الإفتراضية بأنها: جماعات من البشر تربطهم اهتمامات مشتركة، ولا تربطهم بالضرورة حدود جغرافيّة أو أواصر عرقيّة أو قبليّة أو سياسيّة أو دينيّة، يتفاعلون عبر وسائل الاتصال ومواقع التّواصل الاجتماعي الحديثة، ويطوّرون فيما بينهم شروط الانتساب إلى الجماعة وقواعد الدّخول والخروج وآليات التّعامل، والقواعد والأخلاقيات التي ينبغي مراعاتها.

2- لايحدث التّواصل في المجتمعات الإفتراضيّة وجها لوجه face-to-face، بل من خلال قنوات اتصال إلكترونيّة تستخدم فيها الكلمة والصورة والصوت، أو ما ينتج عن مزج هذه الطرائق. إنّ الكتابة حالة من التواصل لا يُسمَع فيها صوت ولا تُرى فيها صورة, وقد وفَّرت وسائل الاتصال الحديثة التفاعل بالصوت والصورة، غير أنّ التفاعل من خلال هذه الوسائل والوسائط يظلّ يفتقر إلى دفء المشاعر الإنسانيّة وحميميّتها.

3- أعادت عملية الإنخراط غير المسبوق في مجتمعات التّقانة وأدواتها طرح النّقاشات الجماعية والاجتماعية حول الهويات وعناصرها وديمومتها واستمرارها في مقاومة عمليات التّنميط أو التّحنيط، بين من ينذر بتحولات كبرى وجذرية عليها، وأن عملية التّحالف بين العلم والتّقنية والثّقافة قد ساهم بشكل كبير في تعميق الهوة بين عناصر الهوية، بفعل الطبيعة التّفكيكية التي تأسست عليها الرؤية الحداثية المعاصرة الموجهة لسياق الكونية(Mondialisation).وبين من يقلل من حدة التأثيرات التّكنولوجية والمجتمعات الإفتراضية في الهويات، ويرى أن هناك مبالغة كبيرة اعتبار الأنترنت أحد العوامل الرئيسية في صنع الهوية المعاصرة.

4- أبرزت النقاشات والطّرحات حول موضوع الهويات والخصوصيات الثّقافية في المجتمعات الإفتراضية اتجاهين اثنين:

- **الأول**: وتمثله بعض الرؤى والاتجاهات النّظرية الحديثة في مجال الإعلام والاتصال ونظريات ما بعد الحداثة في مجال الفكر والفلسفة المعاصرة على أنّ وسائل الإعلام قامت وبكفاءة بتشكيل وإعادة تشكيل الهويات، فتكنولوجيا الإعلام والاتصال قد غيّرت جذريا الوعي الاجتماعي وأزالت عنصر المكان الذي كان أساس التّجمع، إذ كان لابد من وجود أرض يجتمعون عليها لتحالفهم وتفاعلهم، إلاّ أنّه وبوجود وسائل الإعلام الجديد لم يعد التّفاعل على أرض واحدة هو الباعث الأول للتجمع، بل أصبح التّفاعل يتم عبر تكنولوجيا ووسائط المعلومات والإعلام، وتحولت وسائل الاتصال الجماهيري التقليدية منها والجديدة إلى أداة لصياغة الثّقافة أكثر مما هي وسيلة من وسائل الثّقافة.

– **الثّاني**: وتمثله كذلك اتجاهات من داخل علم الاجتماع والإعلام والاتصال، ويرى أنه:"من المبالغة اعتبار شبكة الأنترنت وتطبيقاتها أحد العوامل الرّئيسية في صنع الهويات في حقبة مابعد الحداثة، لأن الاستنتاجات والتحليلات في هذا الخصوص تتم من خلال التركيز المفرط على أدلة حكائية مستمدة من ممارسات هامشية تماما بالمقارنة مع الميول السائدة في استخدام الأنترنت. وتؤكد البراهين والتجارب التي أجريت مؤخرا أن عدد الأفراد الذين يستخدمون الإنترنت بانتظام من أجل بناء هويتهم هو عدد محدود جدا... وأن معظم النّاس يدخلون العالم الإفتراضي حاملين هويات مكتملة وليسوا ساعين إلى إيجاد هويات جديدة.

5- أفصحت القراءة التّحليلية في أدلة وبراهين الإتجاه الأول عن مظاهر متعددة لتأثر الهويات والخصوصيات الثقافية في المجتمعات الإفتراضية أهمها:

– التّجرد من الخصوصية: فانخراط الفرد أو الجماعة في المجتمعات الإفتراضية جردهم من الخصوصيات، وأخرجهم إلى العالم المشاع، وبالتالي جرد الهوية من مركزيتها في إحكام سلوك و أفعال الأفراد و الجماعات. والأكثر من ذلك تجرد الفرد من الذّات والأنا الإنسانية وتحوله إلى مجرد اسم مستعار أو رقم جهاز، أو صورة رمزية؛ ففي المجتمعات الرّقمية تنمحي خصائص الحضور الفيزيائي، وتفقد العناصر الضاهرية للفرد والتي يعرف عن طريقها مثل المظهر واللباس واللون والهيئة والجنس وغيرها؛ ويصبح الفرد يعرف من خلال عنوان جهاز الحاسوب أو عنوان اسم المجال أو عنوان البريد الإلكتروني أو الاسم المستعار أو الصورة الرمزية التي يضعها وغيرها من الأشياء التي قد لاتعكس هويته الحقيقية أو لا تقدم القدر الكافي من المعلومات لمعرفته.

– تأثر العلاقات الاجتماعية التّقليدية: وهو تحول آخر مرتبط بالإقبال الكثيف على مواقع التّواصل الاجتماعي خاصة على شبكة الإنترنت، والمتمثل في الإنعكاسات السلبية للعلاقات الافتراضية على العلاقات الاجتماعية التقليدية. فقد نتج عن تطوّر المجتمعات الافتراضيّة حالات متفاوتة من الانقطاع عن العالم الواقعي وانهيار العلاقات الاجتماعيّة.

المراجع

1. Beniger, J:The Control Revolution:Technological and Economic Origins of the Information Society,MA: Harvard University Press,1986.
2. Daniel Downes,The Poetics of Cyberspace :Interactive Realism, (McGill Queen's University Press, 2005.)
3. De Moor Aldo,Weigand Hans:"Formalizing the evolution of Virtual Communities", Information Systems 32 (2), 2007, pp 223-24
4. Fanny Georges,''Représentation de Soi et Identité Numérique Une approche sémiotique et quantitative de l'emprise culturelle du web 2.0 ", Réseaux 2009/2 (n° 154).
5. Howard Rheingold:The Virtual Community: Finding Commection in a Computerized World, (Addison-Wesley Longman Publishing Co., Inc. Boston, MA, USA ,1993).
6. J. Dewey: Democracy and Education, (New York: Macmillan, 1964).
7. K .Ann Renninger, Shumar Wesley, Building Virtual Communities, (Cambridge University Press, 2002.)
8. M.Castells: End of Millennium, (Oxford: Blackwell,1998).
9. M.Castells: The Rise of the Network Socity, Oxford: Blackwell, 1996.
10. M.Weber:''Order in Diversity:Community without Propinquity'', in: L. Wingo, ed, Cities and Space, (Baltimor: Johns Hopkins University Press, 1963).
11. Rosengren.k.E & Windahl.S:''Mass Media Consum- tions as a Functional Alternative '', In McQueil: Sociology of Mass Communications(Penguin:UK, 1972).

1. أحمد زايد:"عولمة الحداثة وتفكيك الثقافات الوطنية"، عالم الفكر(مجلس النّشر العلمي، جامعة الكويت، مجلد 3، عدد سبتمبر 2003).
2. بايوسف مسعودة:"الهوية الإفتراضية: الخصائص والأبعاد؛ دراسة استكشافية على عينة من المشتركين في المجتمعات الإفتراضية"، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية(عدد خاص بفعاليات الملتقى الدّولي الأول حول الهوية والمجالات الاجتماعية في ظل التحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري، المنعقد بجامعة ورقلة، الجزائر، يومي 27، 28 فيفري 2011).
3. دارن باربي: المجتمع الشّبكي، ترجمة أنور الجمعاوي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط1، 2015.
4. الصادق الحمامي: الميديا الجديدة؛ الابستيمولوجيا والإشكالات والسّياقات، (تونس:المنشورات الجامعية بمنوبة،طبعة1، 2012).
5. عبد الخالق بدري:"الجماعات الإفتراضية ومسألة الهوية"،ج2، مركز الدّراسات والأبحاث في القيم، المملكة المغربية، 2018/2/24. http://www.alqiam.ma/Article.aspx?C=5654
6. عواطف عبد الرحمن: الإعلام والعولمة البديلة، (القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، ط(1)، 2006م).

7. كلثوم بيبيمون:"السّياقات الثقافية الموجهة للهوية الرّقمية في ضوء تحديات المجتمع الشّبكي من التداول الإفتراضي إلى الممارسة الواقعية"، مجلة إضافات(المجلة العربية لعلم الاجتماع)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، عدد 33، 34، شتاء وربيع 2016.
8. نصر الدّين العياضي:"الرّهانات الابستمولوجية والفلسفية للمنهج الكيفي؛ نحو أفاق جديدة لبحوث الإعلام والاتصال في المنطقة العربية"، أبحاث المؤتمر الدّولي"الإعلام الجديد: تكنولوجيا جديدة... لعالم جديد"، المنعقد بجامعة البحرين، من7- 9 أبريل 2009، منشورات جامعة البحرين طبعة 1، 2009.
9. نوال بركات:"الفضاء السيبيري والعلاقات الاجتماعية في المجتمع الإفتراضي-بين جغرافيا الواقع والجغرافيا الإفتراضية"، مجلة علوم الإنسان والمجتمع، جامعة بسكرة، الجزائر، العدد12، نوفمبر 2014.
10. هربرت شيللر: الاتصال والهيمنة الثقافية، ترجمة، وجيه سمعان عبد الوجيه، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1993).